الباب الرابع عشر

في الكتابة

أنواع الكتبة الخمسة:

يروى عن عمرو بن مسعدة الصولي، وزير المأمون، أنه قال: كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى إذا نزل الرقة، قال لي: يا عمرو، أما ترى عمر بن فرج ابن زياد الخجي، قد احتوى على الأهواز؟ وهي سلة الخبز، وجميع الأموال قبله، وقد طمع فيها، وكتبي متصلة في حملها إليه، وهو يتعلّل ويتربّص بنا الدوائر.

فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أكفيك أمره، وأنفذ من يضطره إلى حمل ما عليه، فقال: ما يقنعني هذا، قلت: فليأمر أمير المؤمنين بأمره.

قال: تخرج إليه بنفسك، حتى تصفّده بالحديد (أي تقيده)، وتحمله إليَّ بعد أن تقبض جميع ما في يده من أموالنا، وتنظر في ذلك وترتّب فيه عمالاً.

فقلت: السمع والطاعة، فلما كان من غد دخلت عليه، فقال: ما فعلت فيما أمرتك به؟. قلت: أنا على ذاك، فقال: أريد أن تجيئني في غد مودعاً، قلت: السمع والطاعة، فلما كان من غد جئت إليه مودعاً.

فقال: أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يوماً واحداً، فاضطربت من ذلك إلى أن خطر عليَّ واستحلفني أن لا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجت وأنا مضطرب مهموم.

وقلت في نفسي: أنا في موضع، وقد جعلني مستحثًّا إلى عامل، ومتخرجاً، ولكن أمر الخليفة لا بدّ من سماعه، وامتثاله واتباع مرسومه، وسرت حتى وصلت بغداد ولم أقم فيها إلا ثلاثة أيام، وانحدرت منها في قارب سريع، أريد البصرة، وجعل لي فيه خيش، واستكثرت من الثلج لشدة الحر، فلما صرت بين جرجرايا وجبل، جرجرايا بلد من بلدان النهروان الأسفل بين واسط وبغداد، وجبل بلدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي من نهر دجلة، سمعت صائحاً من الشاطىء يصيح: يا ملاح فرفعت سجف القارب، فإذا أنا بشيخ كبير السن حاسر الرأس، حافي القدمين خلق الثياب.

فقلت للغلام :أجبه فأجابه، فقال: أنا شيخ كبير السن، على هذه الصورة التي ترى، وقد أحرقتني الشمس، وكادت تقتلني، وأنا أريد جبَل، فأحملني معكم فإن الله عز وجل يحسن أجر صاحبكم.

قال عمرو بن مسعدة فشتمه الملاح وانتهره، فأدركتني عليه رقة ،وقلت: للغلام خذه معنا، فقدّم إلى الشّطّ القارب وحملناه ، فلما صار معنا في القارب وانحدرنا ، تقدمت إليه فدفعت إليه قميصاً ومنديلاً وغسل وجهه واستراح ، فكأنه كان ميتاً عاد إلى الحياة من جديد.

وحضر وقت الغداء، وقلت للغلام ناده يأكل معنا، فجاء وقعد على الطعام، فأكل أكل أديب الغداء، ظريف ، غير أن الجوع قد أثر فيه أثراً واضحاً.

فلما رفعت المائدة أردت أن يقوم ويغسل يديه ناحية ـ ما يفعل العامة في مجالس الخاصة ـ فلم يفعل فغسلت يدي وتذممت أن آمر بقيامه، فقلت: قدموا له الإناء فغسل يده، وأردت بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل.

فأردت أن أختبره وأتبيَن حاله بالحديث إليه ، فقلت: يا شيخ ما صناعتك؟ فقال: أنا حائك أصلحك الله.

فقلت في نفسي: هذه الحياكة علمته سوء الأدب ،فتناومت عنه، ومددت رجلي، فقال الشيخ: لقد سألتني عن صناعتي فأجبتك، فأنت أعزك الله ما صناعتك؟.

فأكبرت بادرة ذلك منه، وقلت: أنا جنيت على نفسي هذه الجناية، ولا بدّ من احتماله ، أتراه ـ الأحمق ـ لا يرى ما أنا فيه من الغلمان والنعمة، وأن مثلي لا يسأل عن مثل هذا.

ثم قلت له: أنا كاتب. فقال الشيخ : أنت كاتب كامل، أم كاتب ناقص؟ فإن الكتّاب خمسة فمن أيهم أنت؟.

فورد عليّ من قول الحائك مورد عظيم، وسمعت كلاماً أكبرته، وكنت متكئاً فجلست، ثم قلت له : فصِّل الخمسة. قال: نعم:

١ ـ كاتب خراج : يقتضي أن يكون عالماً بالشروط، والأجور والحساب والمساحة والبثوق والفتوق والرتوق.

٢ـ وكاتب أحكام : يحتاج أن يكون عالماً بالحلال والحرام، والاختلاف والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع.

٣ـ وكاتب معونة: يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات والمراتبات والسياسات.

٤ـ وكاتب جيش : يحتاج أن يكون عالماً بحلى الرجال، وشيات الدواب ومداراة الأولياء، وشيء من العلم بالنسب والحساب.

٥ـ كاتب رسائل : يحتاج أن يكون عالماً بالصدور والفصول والإطالة والإيجاز، وحسن البلاغة وجودة الخط.

فقلت له : أنا كاتب رسائل، قال: فأسألك عن بعضها؟. قلت: سل. قال: أصلحك الله، لو أن رجلاً من إخوانك تزوجت أمه،فأردت أن تكاتبه مهنئاً، فماذا كنت تكتب إليه؟.

ففكرت في الحال فلم يخطر ببالي شيء فقلت: اعفني، قال: قد فعلت، ولكنك لست بكاتب رسائل ، فقلت: أنا كاتب خرج.

قال: لا بأس، لو أن أمير المؤمنين ولاك ناحية، وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضي حق السلطان، فتظلم إليك بعضهم من مساحيك، وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك، فحلف المساح بالله العظيم، لقد أنصفوا وما ظلموا، وحلف الرعية بالله العظيم أنهم قد ظلموا، وجاروا عليهم، وقالوا لك : قف معنا على ما مسحوه وانظر من الصادق، ومن الكاذب، فخرجت مع القوم لتقف عليه، فوقفوا على قراح شكله (قاتل قثا) كيف كنت تمسحه؟.

فقلت: فآخذ الوسط وأضربه بالعمود، قال: إذا ينثني عليك العمود فأسكتني، فقلت : أنا لست كاتب خراج، قال : فإذاً ماذا؟.

قلت: أنا كاتب قاض. قال: لا تبال، أفرأيت لو أن رجلاً توفي وخلف امرأتين حاملتين، إحداهما حرة والأخرى سرية، وولدت السرية غلاماً وولدت الحرة جارية، فعمدت الحرة إلى ولد السرية فأخذته وتركت بدله الجارية، فاختصمتا في ذلك، كيف تحكم بينهما؟.

قلت: لا أدري، قال: فلست كاتب قاض، قلت أنا كاتب جيش. قال: لا بأس عليك أرأيت لو أن رجلين جاءا إليك لتحليهما، وكل واحد منهما اسمه واسم أبيه كاسم الآخر واسم أبيه، إلا أن أحدهما مشقوق الشفة العليا، والآخر مشقوق الشفة السفلى، كيف كنت تحليهما؟.

قلت: أقول فلان الأعلم، وفلان الأعلم، قال: إن رقيهما مختلفان، وكل واحد منهما يجيء في دعوة الآخر، قلت لا أدري. قال الشيخ: فلست بكاتب جيش أنت؟.

قال : أنا كاتب معونة ، فقال الشيخ : لا عليك انتقل إلى أي نوع من أنواعها فلست في شيء من ذلك ، ولما قال المسؤول أنا كاتب معونة.

قال الشيخ : لوأن رجلين رفعا إليك شج أحدهما شجة موضحة (الشجة الموضحة أو الواضحة) التي تكشف العظم، وشج الآخر صاحبه شجة مأمومة (الشجة المأمومة أو الآمة التي تصل إلىأم الرأس، وأم الدماغ وتسمى الجائفة).

والشجة شقّ في الجلد ، وهي في الرأس أو الجبين خاصة، وقد تعمم والجمع شجاج، وشجات والشجة على مراتب عشر، وهي الحارصة والباضعة، والدامية، والمتلاحمة، والسمحاق، والموضحة، والهاشمة، والمنقلة، والآمة، والدامغة).

قال الشيخ لعمرو بن مسعدة الصولي وزير المأمون: فبما أنك قلت، بأنك كاتب معونة لو أن رجلين رفعا إليك شج أحدهما شجة موضحة، وشج الآخر صاحبه شجة مأمومة، كيف تفصل بينهما؟. قال عمرو بن مسعدة: لا أدري.

قال الشيخ إذن أنت لست كاتب معونة، فاطلب لنفسك ـ أيها الرجل ـ شغلاً غير هذا فإنك لا تصلح لأن تكون كاتباً لأي نوع من الأنواع الخمسة.

قال عمرو بن مسعدة: فعصرت إلى نفسي وغاظني ما سمعت من الشيخ فقلت له: لقد سألت عن هذه الأمور، وعلمت علمي فيها، وقد يجوز أن لا يكون عندي أجوبتها، كما لم يكن عندي فإن كنت عالماً بالجواب فقل: اسمع ، فإن لكل قول حقيقة، وإلا فسأعتبر أسئلتك أسئلة تعنتية وتعنيتية ، لا تعليمية و لاتعلمية.

فقال الشيخ: نعم، فإليك الجواب ، أولاً بأول: أما فمن تزوجت أمه فتكتب إليه ما يلي:

أما بعد فإن الأمور تجري بأمر الله من عند الله، بغي محبة عباده ، ولا اختيارهم، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يختار لهم ما أحب لهم، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [سورة القصص: ٦٨]. وقد بلغني تزويج الوالدة، خار الله لك في قبضها ، فإن القبر أكرم الأزواج وأستر للعيوب والسلام.

وأما قراح (قاتل قثا): فيمسح العمود حتى إذا صار عدد في يدك ضربته في مثله ثلثه فما خرج فهو مساحته.

وأما ما يتعلق بالحكم بين المرأتين والغلام والجارية ولمن الغلام ولمن الجارية؟ فيوزن اللبنان فأيهما أخف فالجارية له، وأيهما أثقل فله الغلام.

وأما المرتزقان المتوافقان في الإسمين ،فإن كان الشق في الشفة العليا كتبت علامته فلان الأعلم، وإذا كان الشق في الشفة السفلى كتبت علامته فلان الأفلح.

وأما أصحاب الشجتين فلصاحب الواضحة : ثلث الدية ،ولصاحب المأمومة: نصف الدية. ذلك جواب ما لم تستطع الإجابة عنه، قال عمرو بن مسعدة الصولي بعدما سمع تلك الإجابة، لقد تعجبت منه، ولقد امتحنته في أشياء غيرها كثيرة فوجدته ماهراً حاذقاً في جميعها بليغاً، فقلت له: ألست زعمت بأنك حائك؟.

فقال الشيخ: أنا ـ أصلحك الله ـ حائك كلام، ولست بحائك فشاجة ثم أنشأ يقول:

ما مر بؤس ولا نعيم ... إلا ولي فيها نصيب
نوائب الدهر أدبتني ... وإنما يوعظ الأديب
قد ذقت حلواً و مراً ... كذلك عيش الفتى ضروب

قلت : فما سبب الذي بك من سوء الحال؟، قال: أنا رجل كاتب دامت عطلتي وكثرت عيلتي وتواصلت محنتي، وقلّت حيلتي فخرجت أطلب تصرفاً، فقطع علي الطريق، فتركت كما ترى فمشيت على وجهي، فلما لاح لي قاربكم استغثت بك.

قلت : فإني قد خرجت إلى تصرف جليل ، وأمر عظيم، أحتاج فيه إلى جماعة مثلك، وقد أمرت لك بخلعة حسنة ، تصلح لمثلك وخمسة آلاف درهم تصلح بها أمرك، وتنفذ منها إلى عيالك، وتقوي نفسك بباقيها، وتصير معي إلى عملي فأوليك أجله ـ إن شاء الله تعالى ـ فقال الشيخ: أحسن الله جزاءك، إذن تجدني بحيث يسرك، ولا أقوم مقام معذر إن شاء الله تعالى.

فأمرت بتسليمه ما رسم له فقبضه وانحدر إلى الأهواز معي فجعلته المناظر لعمر ابن فرج بن زياد الرخجي، والمحاسب له بحضرتي والمستخرج لما عليه، فقام بذلك أحسن قيام وأوفاه.

وعظمت حال الشيخ معي وعادت نعمته إلى أحسن ما كانت عليه. والخبرة ، إذا وظفت توظيفاً حسناً تأتي ثمارها لفائدة الفرد والمجتمع ، والمثل المعروف المتداول

بين الناس، أسأل المجرب ولا تسأل الطبيب، ومن هنا يجب أن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

وإن مما لا شك فيه إن السلبيات لا تظهر إلا إذا أسندت الأمور إلى غير أهلها فيسيؤون التصرف تبعاً لهواهم ، وجاء في الحديث النبوي الشريف: (**إذا أسندت الأمور إلى غير أهلها فانتظروا الساعة**).

وقال إياس بن معاوية : أرسل إليّ عمر بن هبيرة فأتيته فساكتني فسكت، فلما أطلت قال: إيه؟. قلت لك: سل عما بدا لك قال: أتقرأ القرآن؟. قلت: نعم. قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً؟. قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً؟، قلت: أنا بها أعرف.

قال: إني أريد أن استعين بك على عملي. قلت: إن فيَّ خلالاً ثلاثاً لا أصلح معهن للعمل قال : ما هن؟.

قلت: أنا دميم كما ترى، وأنا حديد، وأنا عيي. قال: أما الدمامة فإني لا أريد أن أحاسن بك الناس، وأما العيي فإني أراك تعرب عن نفسك، وأما سوء الخلق فيقومه السوط ، قم قد وليتك. قال: فتولاني وأعطاني ألفي درهم فهما أول ما تمولته.

وسأل عمر بن عبد العزيز أبا مخلد عن رجل يوليه خراسان، فقال له: ما تقول في فلان؟ قال: مصنوع له وليس بصاحبها، قال: فلان؟ قال: سريع الغضب بعيد الرضا. يسأل الكثير ويمنع القليل، ويحسد أمه وينافس أباه، ويحقر مولاه، قال: ففلان؟.

قلت: يكافيء الأكفاء، ويعادي الأعداء، ويفعل ما يشاء، قال عمر بن عبد العزيز، ما في واحد من هؤلاء خير.